المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

من هم أصدقاء الشعب

و كيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين

مكتبة النجمة الحمراء

من هم «اصدقاء الشعب»
وكيف يحاربون الاشتراكيين-الديموقراطيين ؟

(جواب عن المقالات الصادرة
في «روسكويه بوغاتستفو» ضد الماركسيين) (١)

الجزء الاول

شنت مجلة «روسكويه بوغاتستفو» (٢) حملة على الاشتراكيين-الديموقراطيين وفي العدد ١٠ من السنة الماضية ، سبق لاحد زعماء هذه المجلة ، السيد ن ميخايلوفسكي ، ان اعلن ان «مناظرة» ستثار ضد «اصحابنا ممن يسمون الماركسيين او الاشتراكيين-الديموقراطيين» (٣) ثم صدر مقال للسيد س كريفنكو «حول المنعزلين المثقفين» (العدد ١٢) ومقال آخر للسيد ن ميخايلوفسكي «الادب والحياة» («روسكويه بوغاتستفو» ، العددان ١ و ٢ ، عام ١٨٩٤) اما مفاهيم المجلة نفسها عن حالتنا الاقتصادية ، فقد عرضها السيد س يوجاكوف باكبر قدر من الكمال في مقال بعنوان «قضايا التطور الاقتصادي في روسيا» (العددان ١١ و ١٢) ان هؤلاء السادة الذين يدّعون ، بوجه عام ، انهم يمثلون في مجلتهم افكار «اصدقاء الشعب» الحقيقيين وتكتيكهم ، هم ألد اعداء الاشتراكية-الديموقراطية لنحاول ان نتامل في «اصدقاء الشعب» هؤلاء ، وفي انتقادهم للماركسية ، وافكارهم وتكتيكهم .

يولي السيد ن ميخايلوفسكي المبادئ النظرية للماركسية جل اهتمامه ، ولهذا فهو يتناول بخاصة تحليل المفهوم المادي عن التاريخ . فبعد ان عرض السيد ميخايلوفسكي ، في خطوط

عامة ، مضمون المطبوعات الماركسية الكثيرة عن هذا المذهب ، فتح نار انتقاده بطلقات المقطع التالي

« بادئ الامر ، يبرز ، بالطبع ، السؤال التالي في اي مؤلف عرض ماركس مفهومه المادي عن التاريخ ؟ لقد اعطانا في « رأس المال » نموذجاً تتآلف فيه قوة المنطق مع سعة الاطلاع ، مع دراسة دقيقة لكل المطبوعات الاقتصادية وللوقائع المناسبة على السواء ولقد نفض الغبار عن نظريي علم الاقتصاد ممن غرقوا في لجة النسيان منذ زمن بعيد او ممن لا يعرفهم احد اليوم ، ولم يهمل اقل تفصيل من تفاصيل التقارير التي وضعها مفتشو المصانع او من تفاصيل شهادات الخبراء امام شتى اللجان المختصة ؛ وبكلمة ، لقد نقب في مجموعة طائلة من الوثائق الملموسة ، سواء لتعليل نظرياته الاقتصادية ام لشرحها ودعمها بالادلة

واذا كان قد ابتكر مفهوما « جديداً تماماً » عن المجرى التاريخي ، واذا كان قد فسر كل ماضي الانسانية من وجهة نظر جديدة ووضع رصيد جميع النظريات الفلسفية التاريخية التي وجدت حتى الآن ، فقد فعل ذلك طبعاً ، بنفس القدر من العناية لقد استعرض فعلا واخضع للتحليل والنقد جميع النظريات المعروفة عن العملية التاريخية ، وتعمق في كمية هائلة من احداث التاريخ العالمي

ان المقارنة مع داروين ، الواسعة الانتشار في الادب الماركسي ، لا تؤكد سوى صحة هذه الفكرة ففيم يتقوم كل تراث داروين ؟ في بضع افكار تعميمية ، متواثقة الصلة ، تكلل جبلا من الوقائع الملموسة كالجبل الابيض (Mont Blanc) فأين هو اذن التراث المناسب عند ماركس ؟ انه غير موجود ان هذا التراث غير موجود عند ماركس ، وليس هذا وحسب ، بل انه ايضاً غير موجود في كل الادب الماركسي ، رغم ما هو عليه من سعة وكمية وانتشار » .

ان كل هذا المقطع لعلى ارفع درجة من الدلالة ؛ فهو يبين الى اي حد قلّما يفهم الجمهور «رأس المال» وماركس ان القراء ، وقد سحقتهم قوة العرض المقنعة ، ينحنون اجلالا امام ماركس ، ويمدحونه ويطرونه ، ولكنهم ، في الوقت نفسه ، يتغافلون كلياً عن المحتوى الاساسي لمذهبه ؛ وكأنما لم يحدث شيء ، يواصلون ترديد انغام قديمة من «علم الاجتماع الذاتي» وبهذا الصدد لا بد من التذكير بالاستشهاد الصحيح جداً الذي صدّر به كاوتسكي كتابه عن مذهب ماركس الاقتصادي :

Wer wird nicht einen Klopstock loben?
Doch wird ihn jeder lesen? Nein.
Wir wollen weniger erhoben
Und fleissiger gelesen sein!*

هكذا بالضبط ! على السيد ميخايلوفسكي ان يقلل من اطراء ماركس ، وان يقرأه بمزيد من المثابرة ، او بالاحرى ، ان يتأمل بمزيد من الجد ما يقرأه

يقول السيد ميخايلوفسكي «لقد اعطانا ماركس في «رأس المال» نموذجاً تتآلف فيه قوة المنطق مع سعة الاطلاع» وقد لاحظ احد الماركسيين قائلا اعطانا السيد ميخايلوفسكي في هذه الجملة ، نموذجاً يتآلف فيه سطوع في التعبير مع فراغ في المحتوى وهذه الملاحظة صحيحة كلياً وبالفعل ، فيم تجلت قوة المنطق هذه عند ماركس ؟ وماذا قدمته لنا من نتائج ؟ يمكن الظن ، عند قراءة مقطع السيد ميخايلوفسكي المذكور آنفاً ، ان كل هذه القوة كانت مصوبة نحو «نظريات اقتصادية»

---

* من ذا الذي لا يطري كلوبشتوك ؟ ولكن هل يقرأه كل انسان ؟ كلا نحن نريد اقل من الاطراء ، ولكننا نريد ان نقرأ بمزيد من المثابرة ! (ليسينغ) . **الناشر** .

بأضيق معنى الكلمة ، لا اكثر ولأجل المزيد من توضيح الحدود الضيقة للميدان الذي اظهر فيه ماركس قوة منطقه ، يرتكز السيد ميخايلوفسكي على «اقل التفاصيل» ، على «الدراسة الدقيقة» ، على «النظريين الذين لا يعرفهم احد» ، الخ وهكذا ، كما يبدو من كلام ميخايلوفسكي ، لم يأت ماركس بأي شيء جديد من حيث الاساس ، ويجدر ذكره ، في طرائق بناء هذه النظريات ؛ وكأنه ترك حدود علم الاقتصاد كما كانت عليه عند الاقتصاديين السابقين ، دون ان يوسعهـــا ، ودون ان يأتي بمفهوم «جديد تماماً» عن هذا العلم نفسه والحال ، يعرف جميع الذين قرأوا «رأس المال» ان هذا الزعم خاطئ من ألفه الى يائـــه وبهذا الصدد ، لا بد من التذكير بما كتبـــه السيد ميخايلوفسكي عن ماركس منذ ١٦ سنة في مناظرته مع البرجوازي المبتذل السيد جوكوفسكي (٤) وسواء أكان الزمن غير ما هو عليه الآن ، ام كانت العواطف اكثر طراوة ، فان لهجة مقال السيد ميخايلوفسكي ومضمونه كانا على كل حال مختلفين تماما

ـ «ان الغرض النهائي من هذا الكتاب هو تبيـــان قانون تطور (في الاصـــل Das ökonomische Bewegungsgesetz ـ قانون الحركة الاقتصادي) المجتمع المعاصر» ، هكذا يقول ماركس عن كتابه «رأس المال» ، وهو يتقيد بهذا البرنامج بكل صرامة» . ـ هكذا قال السيد ميخايلوفسكي عام ١٨٧٧ فلننظر عن كثب الى هذا البرنامج المتقيـّد به بكل صرامة ، كما يعترف الناقد بنفسه ان هذا البرنامج يتقوم في «تبيان القانون الاقتصـــادي لتطور المجتمع المعاصر»

ان هذه الصيغة نفسها تضعنا وجهاً لوجـــه امام عدد من الاسئلة تتطلب ايضاحاً وشرحاً لماذا يتحدث ماركس عن المجتمع «المعاصر (modern)» بينما تحدث جميـــع الاقتصـــاديين الذين

سبقوه عن المجتمع بوجه عام ؟ بأي معنى يستعمل كلمة «معاصر» ، بأية سمات خاصة يميّز هذا المجتمع المعاصر ؟ ثم ، ماذا يعني القانون الاقتصادي لحركة المجتمع ؟ لقد اعتدنا ان نسمع الاقتصاديين يقولون ـ وهذه ، للمناسبة ، احدى الافكار المفضلة عند الكتاب السياسيين وعند الاقتصاديين من الوسط الذي تنتمي اليه «روسكويه بوغاتستفو» ـ ان انتاج القيم وحده يخضع للقوانين الاقتصادية وحسب ؛ بينما التوزيع ، كما يزعم ، رهن بالسياسة ، بطبيعة التأثير الذي تمارسه السلطات العامة ، والمثقفون ، الخ ، على المجتمع . فبأي معنى اذن يتحدث ماركس عن القانون الاقتصادي لحركة المجتمع ، عن هذا القانون الذي يسميه في الوقت نفسه Naturgesetz ـ قانوناً من قوانين الطبيعة ؟ كيف ندرك هذا ، وقد سوّد كثرة من علماء الاجتماع في بلادنا تلالا من الورق ، معلنين ان نطاق الظواهر الاجتماعية يتميز عن نطاق الظواهر الطبيعية التاريخية ، وانه ينبغي بالتالي تطبيق «منهج ذاتي في علم الاجتماع» ، خاص تماماً ، على تحليل الظواهر الاجتماعية ؟

تتجلى كل علائم الحيرة هذه بصورة طبيعية وضرورية ؛ وغني عن البيان ان الجهلة وحدهم بامكانهم ان يتغاضوا عنها في معرض كلامهم عن «رأس المال» ولكي نستهدي في هذه المسائل ، نذكر اولا مقطعاً آخر من مقدمة «رأس المال» نفسها ، ورد بعد المقطع السابق ببضعة اسطر فقط .

يقول ماركس

«ان وجهة نظري تتقوم في اني انظر الى تطور التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية بوصفه مجرى طبيعياً تاريخياً»

ان مجرد المقارنة بين المقطعين الواردين اعلاه من مقدمة «رأس المال» يكفي للبيان انه هنا بالضبط تكمن فكرة «رأس

المال» الاساسية ، معروضة ، كما سمعنا لتوه ، بتقيد صارم وقوة منطق نادرة وبهذا الصدد ، تجب الاشارة قبل كل شيء الى شيئين ان ماركس لا يتحدث الا عن «تشكيلة اجتماعية اقتصادية» واحدة فقط ، هي التشكيلة الرأسمالية ، اي انه يقول انه حلل قانون تطور هذه التشكيلة وحدها ، دون غيرها من التشكيلات هذا اولا ثانياً ، تجب الاشارة الى الطرائق التي اتبعها ماركس لصياغة استنتاجاته: هذه الطرائق كانت تتقوم، كما اسمعنا السيد ميخايلوفسكي الآن ، في «دراسة دقيقة للوقائع المناسبة».

لننتقل الآن الى تحليل هذه الفكرة الاساسية في «رأس المال» التي حاول فيلسوفنا الذاتي التهرب منها بمهارة بالغة ففيم يتقوم مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية ؟ وبأي معنى يمكن ويجب اعتبار تطور هذه التشكيلة عملية طبيعية تاريخية ؟ ــ هذان هما السؤالان اللذان يطرحان اليوم امامنا ولقد سبق لي ان بينت ان مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية ، حسب الاقتصاديين وعلماء الاجتماع القدماء (لا بالنسبة لروسيا) ، امر زائد تماما فهم يتحدثون عن المجتمع بوجه عام ، ويتناقشون مع امثال سبنسر حول ماهية المجتمع بوجه عام ، وغاية وجوهر المجتمع بوجه عام ، الخ ان علماء الاجتماع الذاتيين هؤلاء يعتمدون في محاكماتهم هذه على حجج كالحجج التالية هدف المجتمع ان يؤمن المنافع لجميع اعضائه ؛ ان الانصاف يتطلب بالتالي هذا التنظيم او ذاك ، وان نظماً لا تتلاءم مع هذا التنظيم المثالي («يجب ان يبدأ علم الاجتماع ببعض الطوباوية» ــ ان هذه الكلمات التي قالها احد اصحاب الطريقة الذاتية ، السيد ميخايلوفسكي ، تصف جوهر اساليبهم وصفاً رائعاً) هي نظم غير عادية ، غير طبيعية ، ويجب ازالتها يصرح السيد ميخايلوفسكي مثلا : «مهمة علم الاجتماع الهامة تتقوم في استجلاء الظروف

الاجتماعية التي تلبى فيها هذه الحاجة او تلك من حاجات الطبيعة البشرية» وهكذا ، كما ترون ، لا يهتم هذا العالم الاجتماعي الا بمجتمع يلبي الطبيعة البشرية ، ولا يهتم اطلاقاً بأية تشكيلات اجتماعية قد تكون قائمة ، فضلا عن ذلك ، على ظاهرة لا تتلاءم مع «الطبيعة البشرية» ، كاستعباد الاغلبية من جانب الاقلية وانتم ترون ايضاً انه لا يمكن اطلاقاً ، من وجهة نظر هذا العالم الاجتماعي ، اعتبار تطور المجتمع عملية طبيعية تاريخية (ان السيد ميخايلوفسكي نفسه يفكر كما يلى «ان العالم الاجتماعي ، اذ يعتبر شيئاً ما مرغوباً فيه او غير مرغوب فيه ، انما يجب عليه ان يجد الشروط التي يمكن فيها تحقيق هذا المرغوب فيه او ازاحة غير المرغوب فيه» ،ـ «شروط تحقيق هذه او تلك من المثل العليا») وعلاوة على ذلك ، لا يمكن ان ترد حتى مسألة التطور ، بل فقط مسألة مختلف الانحرافات عن «المرغوب فيه» ، مسألة «العيوب» التي ظهرت في التاريخ من جراء من جراء قلة الذكاء عند الناس ، فلم يستطيعوا ان يدركوا جيداً متطلبات الطبيعة البشرية ولم يعرفوا كيف يجدون الشروط الضرورية لتحقيق نظم معقولة كهذه وبديهي ان فكرة ماركس الاساسية حول تطور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تطوراً طبيعياً تاريخياً ، تنسف من الجذور هذا الوعظ الصبياني الذي يطمح الى لقب علم الاجتماع فكيف صاغ ماركس اذن هذه الفكرة الاساسية ؟ لقد فعل ذلك عن طريق فرز الميدان الاقتصادي على حدة من بين شتى ميادين الحياة الاجتماعية ، عن طريق فرز **علاقات الانتاج** على حدة من بين جميع العلاقات الاجتماعية ، باعتبارها علاقات اساسية ، اولية ، تحدد جميع العلاقات الاخرى. وقد وصف ماركس نفسه مجرى محاكماته حول هذه القضية على النحو التالى :

«ان اول عمل قمت به لتبديد الشكوك التي كانت تنتابني ، اني اعدت النظر ، بروح نقادة ، في فلسفة الحق لهيغل (٥) وقد ادت بي ابحاثي الى هذه النتيجة وهي ان العلاقات الحقوقيـــة ، شانها شان الاشكال السياسية ، لا يمكن استخلاصها وتفسيرها من الاسس الحقوقية والسياسية وحدها ؛ وبالاحرى لا يمكن تفسيرها واستخلاصها من التطور العام المزعوم للروح البشرية ، ولكنهـــا تمد جذورها في العلاقات المادية الحياتية وحدها ، التي يسميها هيغل كلها ، على غرار الكتاب الانجليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر ، باسم «المجتمع المدني» ؛ اما تركيب المجتمع المدني فيجب البحث عنه في الاقتصاد السياسي ان النتائج التي توصلت اليها بدراسة الاقتصاد السياسي يمكن صياغتها بايجاز كما يلي ان الناس ، اثناء الانتاج المادي ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ، **علاقات انتاج** تطابق دائماً درجة تطور الانتاجية التي بلغتها في ذلك الوقت قواهم الاقتصادية ومجموع علاقات الانتـــاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، اي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي ، سياسي وحقوقي ، والذي تطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي وهكذا فان اسلوب الانتاج يشترط العمليات التي تجري في الحياة ، الاجتماعية والسياسية والروحية الصرف ان وجودها ليس رهناً بادراك الانســـان ، بل ، على العكس من ذلك ، فان هذا الادراك نفسه رهن بها غير انه ، عندما تبلغ القوى المنتجة درجة معينة من تطورها ، تدخل في تناقض مـــع علاقات الانتاج القائمة بين النـــاس ، ومن جراء ذلك تدخل في تناقض مع ما يشكل التعبير الحقوقي لعلاقات الانتاج ، اي نظام الملكية آنذاك تكف علاقات الانتاج عن مطابقة القوى المنتجة ، وتصبح قيوداً لهذه القوى المنتجة وعندئذ ينفتح عهد انقلاب اجتماعي . ومع تغير الاساس الاقتصادي ، يتغير كل البناء الفوقي

الهائل الذي يقوم عليه ، ويتغير بصورة مختلفة من السرعة او البطء وعند دراسة هذه الانقلابات ، ينبغي دائماً التمييز بدقة بين التغير المادي في ظروف الانتاج ، هذا التغير الذي يجب التثبت منه بطريقة العلوم الطبيعية ، وبين التغير في الاشكال الحقوقية ، والسياسية ، والدينية ، والفنية ، والفلسفية ، او ، بكلمة مختصرة ، الاشكال الايديولوجية التي تتسرب بها فكرة التصادم الى ضمير الناس والتي يجري بها النضال بسببه بصورة خفية فكما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقاً للفكرة التي لديه عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا ، وفقاً لوعيه لنفسه بل بالعكس ينبغي تفسير هذا الوعي انطلاقاً من تناقضات الحياة المادية ، من التصادم بين ظروف الانتاج والقوى المنتجة ان اساليب الانتاج الاسلوب الآسيوي ، والقديم ، والاقطاعي ، والبرجوازي الحديث ، مرسومة بخطوطها العامة ، يمكن اعتبارها بمثابة عهود متصاعدة في تاريخ تشكيلات المجتمع الاقتصادية» (٦)

ان هذه الفكرة ، فكرة المادية في علم الاجتماع ، كانت بحد نفسها فكرة عبقرية وطبيعي انها لم تكن **في ذلك الحين** سوى فرضية ، ولكنها فرضية تتيح ، للمرة الاولى ، النظر الى القضايا التاريخية والاجتماعية من زاوية علمية محض ولقد كان علماء الاجتماع عاجزين حتى ذاك عن الهبوط حتى معرفة هذه العلاقات البسيطة والاولية التي هي علاقات الانتاج ، فكانوا يعمدون مباشرة الى تحليل ودراسة الاشكال السياسية والحقوقية ، وكانوا يصطدمون بواقع ان هذه الاشكال تنبثق عن هذه او تلك من افكار الانسانية في مرحلة معينة ، ـ ولا يتخطون هذا الحد وكان يبدو ، كان الناس يقيمون العلاقات الاجتماعية عن وعي ولكن هذا الاستنتاج ، الذي وجد تعبيره الكامل في فكرة Contrat Social (٧)

(التي نجد لها آثاراً بارزة جداً في جميع مناهج الاشتراكيـــة الطوباوية) ، كان يتناقض كل التناقض مع جميع الملاحظـــات التاريخية فان اعضاء المجتمع لم يتصورا قط ــ لا من قبل ولا اليوم ــ مجمل العلاقات الاجتماعية التي يعيشون في نطاقها ، شيئاً محدداً ، كاملا ، شيئاً مفعماً بمبدأ اساسي ؛ بل بالعكس ، فان الجمهور يتكيف بلا وعي مع هذه العلاقـــات ، وهو ابعد من ان يتصورها علاقات اجتماعية تاريخية خاصة بحيث انه لم يُعط ، مثلا ، تفسير لعلاقات التبادل التي هيمنت على حياة الناس طوال قرون ، الا في الآونة الاخيرة وقد قضت المادية على هذا التناقض اذ تعمقت اكثر في التحليل ، وبسطته حتى على اصل افكار الانسان الاجتماعية بالذات ؛ واستنتاجها القائل ان مجرى الافكار رهن بمجرى الامور الواقعية هو وحده الذي يطابق البسيكولوجيـــا العلمية وفضلا عن ذلك ، رفعت هذه الفرضية علم الاجتماع ، للمرة الاولى ، ومن وجهة نظر اخرى ايضاً ، الى مصاف العلوم فحتى ذاك ، كان من الصعب على علماء الاجتماع ان يميزوا ، في الشبكة المعقدة للظواهر الاجتماعية ، بين الظواهر الهامة وغير الهامة (وهنا يكمن اصل الذاتية في علم الاجتمـــاع) ، ولم يكن بامكانهم ان يجدوا لهذا التمييز مقياساً موضوعياً وقد قدمت المادية مقياساً موضوعياً تماماً اذ فرزت **علاقات الانتاج** ، بوصفها اساس المجتمع ، ووفرت امكانية تطبيق المقياس العلمي العام ، مقياس التكرار ، على هذه العلاقات ، ــ مع ان الذاتيين كانوا ينكرون امكانية تطبيقه في علم الاجتماع وطالمـــا اكتفوا بالعلاقـــات الاجتماعية الايديولوجية (اي بعلاقات تمر في وعي * الناس قبل

---

* وطبيعي ان المقصود هنا دائما هو ادراك العلاقات **الاجتماعية** ، دون غيرها .

ان تتكون) ، فانهم لم يتمكنوا من ملاحظة التكرار والانتظام في الظواهر الاجتماعية في مختلف البلدان ، ولم يكن علمهم ، في افضل الحالات ، سوى وصف لهذه الظواهر ، سوى جمع لمواد خام ان تحليل العلاقات الاجتماعية المادية (اي تلك التي تتكون دون ان تمر في وعي الناس ان الناس ، اذ يتبادلون المنتجات ، يدخلون في علاقات انتاج ، حتى دون ان يدركوا ان هذه العلاقات علاقات انتاج اجتماعية) ـ ان تحليل العلاقات الاجتماعية المادية قد اتاح فوراً ملاحظة التكرار والانتظام ، وتعميم انظمة مختلف البلدان وجمعها في مفهوم اساسي واحد هو **التشكيلة الاجتماعية** وهذا التعميم وحده هو الذي اتاح الانتقال من وصف الظواهر الاجتماعية (ومن تقديرها من وجهة نظر المثال الاعلى) الى تحليلها تحليلا علمياً دقيقاً يفرز ، مثلا ، ما يميز بلداً رأسمالياً عن آخر ويدرس ما هو مشترك بين جميع البلدان الرأسمالية

واخيراً ، ثالثاً ، هناك سبب آخر لكون هذه الفرضية قد جعلت من الممكن ، للمرة الاولى ، وجود علم اجتماع **علمي** ، هو انه ، باعادة العلاقات الاجتماعية الى علاقات الانتاج وهذه الاخيرة الى مستوى القوى المنتجة ، اعطي اساس متين لاعتبار تطور التشكيلات الاجتماعية مجرى طبيعياً تاريخياً وغني عن البيان انه ، دون مثل وجهة النظر هذه ، لا يمكن ان يكون ثمة علم اجتماعي (ان الذاتيين ، مثلا ، كانوا يعترفون بقانونية الظواهر التاريخية ، ولكنهم كانوا مع ذلك عاجزين عن اعتبار تطورها بمثابة عملية طبيعية تاريخية ـ ذلك على وجه الضبط لانهم كانوا يتوقفون عند افكار الانسان وغاياته الاجتماعية دون ان يعرفوا كيف يعيدون هذه الافكار والغايات الى العلاقات الاجتماعية المادية) .

وماركس ، الذي صاغ هذه الفرضية في العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، راح يدرس المواد دراسة واقعية

(nota bene *) فيأخذ تشكيلة واحدة من التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ـ نظام الاقتصاد البضاعي ، ـ وعلى اساس عدد هائل من المعطيات (درسها خلال خمس وعشرين سنة على الاقل) يحلل تحليلا دقيقاً جداً قوانين عمل هذه التشكيلـــة وتطورها وهذا التحليل يقتصر على علاقات الانتاج بين اعضاء المجتمع فان ماركس ، دون ان يلجأ ابداً ، لايضاح الامر ، الى عوامل موضوعة خارج علاقات الانتاج هذه ، يتيح للقارئ ان يرى كيف يتطور التنظيم البضاعي للاقتصاد الاجتماعي ؛ كيف يتحول هذا التنظيم الى تنظيم رأسمالي ويخلق طبقتين متناحرتين (وهذه المرة في نطاق علاقات الانتاج) ، هما البرجوازية والبروليتاريا ؛ كيف يطور انتاجية العمل الاجتماعي ويقدم بالتالي عنصراً يدخل في تناقض لا حل له مع اسس هذا التنظيم الرأسمالي نفسه .

ذلك هو **هيكل** «رأس المال» ولكن كل ما في الامر هو ان ماركس لم يكتف بهذا الهيكل ، وانه لم يقتصر على «النظريـــة الاقتصادية» وحدها بمعناها العادي ؛ وانه ـ مع **تفسير** تركيب وتطور تشكيلة اجتماعية معينة بعلاقات الانتاج **على وجه الحصر** ـ قد حلل دائما وفي كل مكان الابنية الفوقية المطابقة لعلاقـــات الانتاج هذه ، وألبس الهيكل لحماً ودماً والنجاح الفائق الذي حظي به «رأس المال» ، انما يعود بالضبط الى كون هذا الكتاب «للاقتصادي الالماني» قد كشف للقارئ كل التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية واظهرها كشيء حي ـ مع وقائع الحياة الجارية ، مع الظواهر الاجتماعية الملموسة لتناحر الطبقات الملازم لعلاقـــات الانتاج ، مع البناء الفوقي السياسي البرجوازي الذي يحمي سيادة طبقة الرأسماليين ، مع الافكار البرجوازية عن الحرية ، والمساواة ،

---

* لاحظوا جيداً .

الخ .، مع العلاقات العائلية البرجوازيـــة وهكذا ندرك الآن ان المقارنة مع داروين صحيحة تمامـــاً فان «رأس المال» ليس سوى «بضع افكار تعميمية ، متواثقة الصلـــة ، تكلل جبلا من الوقائع الملموسة كالجبل الابيض» واذا كان ثمة احد استطاع ألا يلاحظ هذه الافكار التعميمية اثناء قراءته «رأس المال» ، فليس الذنب ذنب ماركس الذي يلفت الانتباه الى هذه الافكار ، حتى في المقدمة ، كما رأينا وفضلا عن ذلك ، ليست هذه المقارنة صحيحة من الوجه الخارجي (الذي لا نعلم لاي سبب يهم السيد ميخايلوفسكي بشكل خاص) وحسب ، بل ايضاً من الوجه الداخلي فكما ان داروين قد وضع حداً نهائيـــاً للمفهوم القائل ان انواع الحيوانات والنباتات ليست ابداً على صلة فيما بينها ، وانها كانت عرضية ، «خلقها الله» ، ثابتـــة لا تتغير ، وكان اول من اعطى البيولوجيا اساساً علمياً تماماً باثباته تغير الانواع وتعاقبها ، كذلك وضع ماركس حداً نهائياً للمفهوم القائل ان المجتمـــع مجموعة ميكانيكية من الافراد تطرأ عليها شتى التغيرات وفقـــاً لمشيئة السلطات (او ، والامران سيان ، وفقاً لمشيئة المجتمع والحكومة) ، وتولد وتتخول بفعل الصدفة ، وكان اول من اعطى علم الاجتماع اساساً علمياً بابداعه مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية بوصفها مجموعـــة من علاقات انتـــاج معينـــة ، وباثباته ان تطور هذه التشكيلات انما هو عمليـــة طبيعيـــة تاريخية .

واليوم ــ منذ صدور «رأس المال» ــ لم يبق المفهوم المادي عن التاريخ فرضية ، بل غدا مذهباً ثابتاً من الناحية العلميـــة ؛ ولذا حتى ظهور محاولة اخرى لاعطاء تفسير علمي لعمل وتطور تشكيلة اجتماعية ما ــ تشكيلة اجتماعية على وجه الدقـــة ، لا عادات وتقاليد بلد ما او شعب ما ، او حتى طبقة ما ، آلخ . ، ــ

محاولة اخرى يكون في مقدورها ، شانها شان المادية ، ان ترتب وتنظم «الوقائع المناسبة» ، وترسم لوحة حية عن تشكيلة ما ، وتعطي عنها تفسيراً علمياً دقيقاً ، ـ سيظل المفهوم المادي عن التاريخ مرادفا لعلم الاجتماع ان المادية ليست «قبل كل شيء مفهوماً علمياً عن التاريخ» ، كمـــا يظن السيد ميخايلوفسكي ، ولكنها المفهوم العلمي الوحيد عن التاريخ

والآن ، هل يمكنكم ان تتصوروا ما هو ادعى الى الضحك فقد وجد اناس قرأوا «رأس المال» ولم يجدوا اية مادية فيه ! اين هي ؟ ـ يسأل السيد ميخايلوفسكي بحيرة صادقة .

لقد قرأ «البيان الشيوعي» ولم يلاحظ ان التفسير الوارد فيه للانظمة العصرية ـ الحقوقية ، السياسية ، العائلية ، الدينية ، الفلسفية ، ـ تفسير مادي ؛ وحتى انتقاد النظريات الاشتراكيـــة والشيوعية يبحث عن جذورها ويجدها في هذه او تلك من علاقات الانتاج .

قرأ «بؤس الفلسفة» ولم يلاحظ ان علم الاجتمـــاع عند برودون محلل في هذا الكتاب من وجهة مادية ، وان هذا الكتاب ياخذ مبادئ المادية أساساً لانتقاد الحل الذي اقترحه برودون لشتى القضايا التاريخية ، وان اشارات المؤلف بالذات ، فيمـــا يخص المصادر التي يجب الاستقاء منها لايجاد حل هذه القضايا ، ترجع كلها الى علاقات الانتاج

قرأ «رأس المال» ولم يلاحظ ان امامه نموذجاً لتحليل علمي لتشكيلة اجتماعية واحدة ـ وهي اشد التشكيلات الاجتماعية تعقداً ـ حسب الطريقة المادية ، نموذجاً اعترف به الجميع ولم يتفوق عليه احد وها هو ذا يتامل ويستغرق في هذه القضية العميقة الفكر «في اي مؤلف عرض ماركس مفهومه المادي عن التاريخ ؟»

ان كل من يعرف ماركس يجيبه بهذا السؤال الآخر في اي من مؤلفاته لم يعرض ماركس مفهومه المادي عن التاريخ ؟ ولكن السيد ميخايلوفسكي لن يعرف بلا ريب عن ابحاث ماركس المادية الا حين تصنف بارقام معينة في مؤلف تاريخي سفسطائي ما لكاريف ما ، في باب «المادية الاقتصادية»

ولكن الحكاية كلها ، ان السيد ميخايلوفسكي يتهم ماركس بانه لم «يستعرض (كذا !) جميع النظريات المعروفة عن المجرى التاريخي» هذا شيء مضحك تماماً فمم كانت تتقوم تسعة اعشار هذه النظريات ؟ في تركيبات a priori * ، جامدة ، مجردة ، مثل ما هو المجتمع وما هو التقدم ؟ الخ (اني اضرب عمدا امثلة عزيزة على فكر وقلب السيد ميخايلوفسكي) ولكن هذه النظريات لم تبق لها اي قيمة لمجرد وجودها بالذات ، لطرائقها الاساسية ، لميتافيزيائها المكثفة العميقة لان البدء بالسؤال ما هو المجتمع وما هو التقدم ؟ ـ انما هو البدء من النهاية فمن اين تأخذ مفهوم المجتمع والتقدم بوجه عام ، اذا كنت لم تدرس تشكيلة اجتماعية واحدة على حدة ، اذا كنت لم تعرف حتى كيف تصيغ هذا المفهوم ، اذا كنت لم تعرف حتى كيف تقوم بدراسة الوقائع دراسة جدية ، وكيف تعمد الى تحليل العلاقات الاجتماعية ، ايا كانت ، تحليلاً موضوعياً ؟ وهذه هي ابرز سمات الميتافيزياء التي بدأ بها كل علم فطالما لم يكونوا قادرين على مواجهة دراسة الوقائع ، فقد ظلوا يخترعون a priori نظريات عامة بقيت دائماً عقيمة فان الكيميائي-الميتافيزيقي ، الذي كان لا يزال عاجزاً عن تحليل التفاعلات الكيماوية على اساس الوقائع ، كان يخترع نظرية حول مسألة معرفة ماهية الالفة الكيماوية .

---

* مسبقا ، بصرف النظر عن التجربة . **الناشر** .

وكان البيولوجي-الميتافيزيقي يتحدث عن ماهيـــة الحياة والقوة الحيوية ، والنفساني-الميتافيزيقي يناظر حول ماهية النفس . وهكذا كان الاسلوب نفسه اخرق فلا يمكن النقاش حول النفس دون تفسير العمليات النفسية بوجه خاص وهنا يجب ان يتقوم التقدم بالضبط في نبذ النظريات العامة والتركيبات الفلسفية حول النفس البشرية ، وفي القدرة على وضع دراسة الوقائع التي تصف شتى العمليات النفسية على اساس علمي ولذا فان اتهـــام السيد ميخايلوفسي يذكر بنفساني-ميتافيزيقي قضى كل حياته في كتابة «ابحاث» حول مسالة ماهية النفس البشرية (دون ان يعرف بالضبط كيف يفسر اية من الظواهر النفسية ، حتى ابسطها) ، فاذا به يعمد الى اتهام عالم بسيكولوجي بانه لم يحلل جميع النظريات المعروفة عن النفس البشرية فهذا العالم البسيكولوجي قد نبذ النظريات الفلسفية عن النفس وطفق يدرس مباشرة الجوهر المادي للظواهر النفسية ــ العمليات العصبيـــة ــ واعطى ، مثلا ، تحليل وتفسير هذه العملية النفسية او تلك وها هو ذا صاحبنـــا النفساني-الميتافيزيقي يقرأ هذا الكتاب ويطريه قائلا ان وصف العمليات ودراسة الوقائع حسنان في هذا الكتاب ؛ ولكنه غير راضي . ويقلق ويصيح عفواً ، اذ يسمع حوله الحديث الذي يتناول الطريقـــة الجديدة كلياً التي يرى بها هذا العالم الى البسيكولوجيا ، الطريقة الخاصة للبسيكولوجيا العلمية ــ عفواً ؛ في اي مؤلف عرضت اذن هذه الطريقة ؟ ان هذا الكتاب لا يتضمن «الا وقائع» . وليس فيه اي تلميح الى تحليل «جميع النظريات الفلسفية المعروفـــة عن النفس البشرية» ، هذا العمل ليس مناسباً اطلاقاً !

كذلك ليس «رأس المال» بالطبع عملا مناسباً بالنسبـــة للعالم الاجتماعي-الميتافيزيقي الذي لا يلاحظ عقم المحاكمـــات a priori الخاصة بماهيـــة المجتمع ، ولا يدرك ان مثل هذه

الطرائق ، بدلا من ان تدرس وتفسر ، لا تفعل غير ان تستعيض خلسة واحتيالا عن مفهوم المجتمع بالافكار البرجوازية التي تملأ رأس تاجر انجليزي او بالمثل العليا الاشتراكية-البرجوازية الصغيرة التي تداعب مخيلة ديموقراطي روسي ، لا اكثر ولهذا فان جميع هذه النظريات الفلسفية-التاريخية ، ما ان ظهرت ، حتى انفقعت كفقاقيع الصابون ، وقد كانت ، في احسن الحالات ، علامة للافكار والعلاقات الاجتماعية في زمنها ، ولم يكن في مستطاعها ان تدفع الى الامام قيد انملة **فهم** الانسان للعلاقات الاجتماعية حتى وان كانت هذه العلاقات منفردة ولكنها فعلية حقاً (لا العلاقات «المطابقة للطبيعة البشرية») ان الخطوة الجبارة التي خطاها ماركس الى الامام في هذا الميدان انما تقومت على وجه الضبط في كونه نبذ كل هذه المحاكمات حول المجتمع والتقدم بوجه عام واعطى تحليلا **علمياً** لمجتمع **معين** وتقدم **معين** هما المجتمع الرأسمالي والتقدم الرأسمالي واذا السيد ميخايلوفسكي يتهم ماركس بانه بدأ من البداية ، لا من النهاية ، بتحليل الوقائع لا بالاستنتاجات الاخيرة ، بدراسة علاقات اجتماعية خاصة محددة تاريخياً لا بنظريات عامة حول طبيعة هذه العلاقات الاجتماعية بوجه عام ! ويسأل «اين هو اذن العمل المناسب ؟» فيا للعالم العلامة الاجتماعي الذاتي الحكيم !!

ولو ان فيلسوفنا الذاتي اقتنع بالاعراب عن حيرته حول مسألة معرفة في اي كتاب اعطي البرهان عن المادية ، لما كان في الامر سوى نصف مصيبة ولكنه رغم انه لم يعثر في اي مكان على اي تعليل ولا حتى على اي عرض للمفهوم المادي عن التاريخ (او ربما بالضبط لانه لم يعثر عليهما) ، ـ بدأ ينسب الى هذا المذهب ادعاءات لم يفصح عنها قط فقد اورد مقطعاً لبلوس جاء فيه ان ماركس اعلن **مفهوماً** جديداً تماماً عن التاريخ ، ثم

صرح بلا تكلف ان هذه النظرية تدّعي «انها فسرت للانسانيـــة ماضيها» ، فسرت «كل (كذا !!؟) ماضي الانسانية» ، الخ ولكن كل هذا تزييف واي تزييف ! فان النظريـــة تدّعي فقط تفسير التنظيم الرأسمالي للمجتمع وحده ، دون غيره من التنظيمات . واذا كان تطبيق المادية على تحليل وتفسير تشكيلة اجتماعيـــة واحدة قد اسفر عن مثل هذه النتائج الساطعة ، فان من الطبيعي تماماً ان لا تبقى المادية في حقل التاريخ فرضية ، بل نظريـــة ثابتة علمياً ؛ ومن الطبيعي تماماً ان تتسع ضرورة مثل هذه الطريقة وتشمل ايضاً سائر التشكيلات الاجتماعيـــة ، حتى وان كانت لم تخضع لدراسة خاصة على اساس الوقائع ولتحليل مفصـــل ، ـ شأنها في ذلك شأن فكرة التحويل التي اعطي الدليل على صحتها بالنسبة لعدد كاف من الوقائـــع ، والتي تشمـــل كل ميدان البيولوجيا ، رغم انه لم يمكن حتى الآن تقديم البرهان الدقيق على تحول بعض انواع الحيوانات والنباتات وكما ان التحويل لا يدّعي ابداً تفسير «كل» تاريخ تكوّن الانواع ، بل يبتغي فقط وضع طرائق هذا التفسير في المستوى العلمي ، كذلك لم تـــدّع المادية يوماً في حقل التاريخ تفسير كل شيء ، بل ابتغت فقط الاشارة الى الطريقة «العلمية الوحيدة» حســـب تعبير ماركس («رأس المال») ، لتفسير التاريخ وهكذا يمكن الحكم على مقدار ما تتضمنه طرائق الجدل التي لجأ اليها السيد ميخايلوفسكي من الحذاقة والجد والحشمة ، حين زوّر ماركس بادئ ذي بدء اذ نسب الى المادية في حقل التاريخ الادعاء الاخرق بانهـــا تريد «تفسير كل شيء» ، وايجاد «مفتاح لجميع الاقفال التاريخية» (وهو ادّعاء سرعان ما نبذه ماركس ، طبعاً ، وبشكل لاذع جداً في «رسالته» (٨) حول مقالات ميخايلوفسكي) ؛ ثم اخذ يتلاعب بهذه الادعاءات التي لفقها بنفسه ، واخيراً ، نقل بامانة افكار

انجلس ،ــ بأمانة لأنه اعطى هذه المرة مقطعاً بحرفيته لا مقطعاً معروضاً بتصرف ، وهو ان الاقتصاد السياسي كما يفهمه الماديون «لا يزال من الواجب خلقه» ، وان «كل ما حصلنا عليه منـــه محدود» بتاريخ المجتمع الرأسمالي (٩) ،ــ وخلص الى الاستنتاج بان «هذه الكلمات تضيّق بصورة محسوسة مجال عمل المادية الاقتصادية» ! فاية سذاجة لا حد لها او اي غرور لا حد لـــه يجب ان يتسم بهما المرء لكي يعتقد ان مثل هذه الاحابيل يمكن ان تظل غير مرئية ! اولا ، زور حضرته ماركس ، ثانياً ، تلاعب باكاذيبه هو ، ثم سرد بأمانة افكاراً معينة ،ــ واخيراً توقّح واعلن ان هذه الافكار تضيق مجال عمل المادية الاقتصادية !

اما من اية طبيعة ومن اي نوع تلاعب السيد ميخايلوفسكي ، فهذا ما يبينه المثل التالي «ماركس لا يعللهـــا اطلاقاً» ــ اي اسس نظرية المادية الاقتصادية ــ هكذا يعلن السيد ميخايلوفسكي. «صحيح ان ماركس فكر في ان يكتب مع انجلس مؤلفاً ذا طابع فلسفي-تاريخي وتاريخي-فلسفي ، بل انه كتبه (١٨٤٥ــ١٨٤٦)، ولكن هذا المؤلف لم يصدر قط قال انجلس «ان القسم الاول من هذا المؤلف (١٠) يتضمن عرضاً للمفهوم المادي عن التاريخ ، يبين فقط الى اي حد كانت معارفنا عن التاريخ الاقتصادي غير كافية» ويخلص السيد ميخايلوفسكى الى القول «وهكذا فان المبادئ الاساسية «للاشتراكية العلمية» ولنظريـــة الماديـــة الاقتصادية ، قد اكتشفت ثم عرضت في «البيان الشيوعي» في فترة كانت فيها معارف المؤلفين الضرورية لمثل هذا الغرض ، حسب اقرار احدهما ، لا تزال ضعيفة»

انتقاد لطيف ، جذاب ، أليس كذلك ؟ يقول انجلس ان معارفهما في حقل «التاريخ» الاقتصادي كانت ضعيفة وانهما لهذا السبب لم يصدرا مؤلفاً ذا طابع تاريخي-فلسفي «عام» . ويعود

السيد ميخايلوفسكي ويفسر هذا بمعنى ان معارفهما كانت ضعيفة «لمثل هذا الغرض» ، اي لصياغة «النقاط الاساسية في الاشتراكية العلمية» ، اي لانتقاد علمي للنظام **البرجوازي** ، سبق وورد في «البيان الشيوعي» هنـــا واحد من اثنين اما ان السيـــد ميخايلوفسكي عاجز عن ادراك الفرق بين محاولة لشمل كل فلسفة التاريخ ومحاولة لتفسير النظام البرجوازي تفسيراً علمياً ، واما انه يعتقد ان ماركس وانجلس لم يكونا يملكان من المعارف ما يكفي لانتقاد الاقتصاد السياسي وفي هذه الحالة ، يقسو كثيراً اذ انه لا يطلعنا لا على اعتباراته بصدد هذا النقص ، ولا على تعديلاته واضافاته نفسه ان قرار ماركس وانجلس بالامتناع عن اصدار مؤلف ذي طابع فلسفي تاريخي وبتركيز كل جهودهما على تحليل تنظيم اجتماعي واحد تحليلا علمياً ليشهد بكل بساطة على درجة عالية جداً من النزاهة العلميـــة اما قرار السيد ميخايلوفسكي بالتلاعب حول هذه الاضافة الصغيرة ومفادها ان ماركس وانجلس عرضا آراءهما معترفين بان معارفهما كانت غير كافية لصياغة هذه الآراء ، فانه لا يصف غير اســاليب جدل لا تدل لا على الذكاء ولا على شعور اللياقة

مثل آخر يقول السيد ميخايلوفسكي «ان انجلس ، alter ego* ماركس ، قد فعل اكثر لتعليل المادية الاقتصاديـــة بوصفها نظرية عن التاريخ فقد كتب مؤلفاً تاريخياً خاصـــاً «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة بالارتباط (im Anschluss) مع وجهات نظر مورغان» ان هذا "Anschluss" طريف حقاً فان كتاب الاميركي مورغان قد صـــدر بعد ان نادى ماركس وانجلس بمبادئ المادية الاقتصادية بسنوات عديدة وبصـــورة

---

* آلتر ايغو ، كانه شخصي الآخر . **الناشر** .

مستقلة تماماً عن مورغان» وهكذا اذن ، كمـــا يزعم السيد ميخايلوفسكي ، «انضم الماديان الاقتصاديان» الى هذا الكتاب ، وبما انه لم يكن ثمة نضال طبقي في ازمنة ما قبل التاريخ ، فقد جاءا «بتعديل» لصيغة المفهوم المادي عن التاريخ اي ان العامل الحاسم ، الى جانب انتاج القيم المادية ، هو انتاج الانسان بالذات ، اي التناسل ، الذي اضطلع بدور اولي في العهد البدائي حين كانت انتاجية العمل لا تزال في غاية الضعف .

قال انجلس «ومأثرة مورغان الكبرى انه وجد في العلاقات العشائرية للهنود الحمر في اميركا الشمالية المفتاح لفض اهم الغاز التاريخ القديم ، الاغريقي والروماني والجرماني ، والتي لم تحل حتى الآن»

وبهذا الصدد يعلن السيد ميخايلوفسكي «وهكذا اكتشف وصيغ في نهاية العقد الخامس مفهوم عن التاريخ جديد اطلاقاً ، ومادي ، وعلمي حقاً ، ادى للعلم التاريخي ما ادته نظرية داروين للعلوم الطبيعية العصرية» ولكن هذا المفهوم ، كما يكرر السيد ميخايلوفسكي مرة اخرى ، لم يعلل قط علمياً «فهو لم يتحقق منه في ميدان الوقائع الملموســـة الرحب والمتنوع (ان «رأس المال» «ليس» عملا «مناسباً» فهو لا يتضمن الا وقائـــع وابحاثاً دقيقة !) ، وليس هذا وحسب ، بل انه ايضاً لم يعلل كفاية وان بواسطة نقد ســـائر المناهج الفلسفية-التاريخيـــة واستبعادهـــا» ان كتـــاب انجلـــس "Herrn E. Dührings Umwälzung der Wissenschaft" * ـ لا يقدم «ســـوى محاولات ظريفة قيلت عرضـــاً» ؛ ولذا يعتبر السيد ميخايلوفسكي ان من الممكن تجاهل عدد كبير من المسائل الاساسية التي يعالجها هذا

* «السيد دوهرينغ يقلب العلم» . **الناشر** .

الكتاب تجاهلا كلياً ، مع ان هذه «المحاولات الظريفة» تبين بكثير من الظرافة فراغ المناهج الاجتماعية التي «تبدأ بطوباويات» ؛ مع ان هذا الكتاب يحتوي نقداً مفصلا «لنظرية العنف» ، آلتي تقول ان النظم السياسية الحقوقية تحدد النظم الاقتصادية ، والتي ينادي بها السادة محررو «روسكويه بوغاتستفو» بكثير من الاجتهاد وبالفعل ، من الاسهل بكثير على المرء ان يلقي ، بصدد كتاب ما ، بعض الجمل التي لا تعني شيئاً ، من ان يحلل جدياً قضية واحدة على الاقل من القضايا التي تجد في الكتاب حلا مادياً ، ناهيك عن ان هذا لا ينطوي على اي خطر ، لان الرقابة لن تسمح ابداً ، على الارجح ، بنشر ترجمة هذا الكتاب ، فبامكان السيد ميخايلوفسكي ان ينعته بالظرافة دون اي خوف على فلسفته الذاتية

وحكمه على مؤلف ماركس «رأس المال» ، اوسع دلالة ايضاً واوضح مثالا (تدليلا لكون اللسان قد اعطي الانسان لكي يخفي افكاره او لكي يسدل على الفراغ جلباب الفكر) «نجد في «رأس المال» صفحات ساطعة ذات مضمون تاريخي **ولكن** (هذه «ولكن» رائعة ! انها ليست حتى مجرد «ولكن» بسيطة ، انما هي تلك "mais" الشهيرة ، التي تعني مترجمة بوضوح «الاذنان لا تنموان اعلى من الجبين») هذه الصفحات ، بسبب من غرض الكتاب بالذات ، لا تشمل سوى مرحلة تاريخية معينة ؛ وهي ، بدلا من ان تؤكد المبادئ الاساسية للمادية الاقتصادية ، لا تفعل غير ان تلمس الجانب الاقتصادي لفئة معينة من الظواهر التاريخية»

اي بتعبير آخر ان «رأس المال» ــ الذي يكمن غرضه الوحيد في دراسة المجتمع الرأسمالي على وجه الضبط ــ يتضمن تحليلا مادياً لهذا المجتمع وابنيته الفوقية ، «**ولكن**» السيد ميخايلوفسكي يفضل التزام الصمت المطبق حول هذا التحليل ، اذ ليس المقصود

هنا ، كما ترون ، سوى مرحلة «واحدة» فقط ، في حين ان السيد ميخايلوفسكي يود ، من جهته ، ان يشمل كل المراحل ، ويشملها بشكل لا يتحدث معه عن اي منها بوجه خاص وغني عن البيان ان ليس ثمة سوى سبيل واحد لبلوغ هذا الهدف ــ اي شمل كل المراحل دون بحث اي منها في الاساس ، ــ وهذا السبيل هو سبيل الافكار المطروقة والجمل «البراقة» ولكن الجوفاء وما من احد يستطيع ان ينافس السيد ميخايلوفسكي في فن التخلص والتهرب بواسطة الجمل الفارغة فهو يزعم ، مثلا ، انه لا يجدر الكلام (على حدة) عن جوهر ابحاث ماركس لسبب واحد ، هو ان ماركس «بدلا من ان يؤكد المبادئ الاساسية للمادية الاقتصادية ، لا يلمس غير الجانب الاقتصادي لفئة معينة من الظواهر التاريخية». فاي عمق في التفكير ! «انـــه لا يؤكد» ؛ بل «لا يفعل غير ان يلمس» ! ــ حقا ، ما اسهل تمويه كل مسألة بجملة ! واذا بين ماركس ، مثلا ، مراراً عديدة كيف تؤلف علاقات منتجي البضائع قاعدة المساواة المدنية في الحقوق ، وحرية التعاقد ، وســـائر اسس الدولة الحقوقية ، فما معنى هذا ، أيؤكد بذلك الماديـــة ام انه «لا يفعل غير» ان يلمسها ؟ ان فيلسوفنا ، بما طبع عليه من تواضع ، يمتنع عن الاجابة على الجوهر ويستخلص مباشرة استنتاجات من «محاولاته الظريفة» للتكلم بطلاقة براقة لكي لا يقول شيئاً

جاء في هذا الاستنتاج قوله «لا غرابة ، بالنسبة لنظرية كانت تدعي انارة التاريخ العالمي ، ان يكون تاريخ الاغريـــق والرومان والجرمان القديم قد ظل لغزاً مستعصياً بعد مرور ٤٠ سنة على اعلانها ان مفتاح هذا اللغز انما قدمه اولا انسان غريب اطلاقاً عن نظرية المادية الاقتصادية وكان يجهل كل شيء عنها ، وقدمه ثانياً بواسطة عامل غير اقتصادي . ان تعبير «انتاج الانســـان

بالذات» اي التناسل يبعث حقاً على الضحك بعض الشـــيء ؛ وانجلس يتمسك به لكي يحفظ على الاقل صلة لغوية مع الصيغة الاساسية للمادية الاقتصادية ومع ذلك اضطر الى الاعتراف بان حياة الانسانية لم تكن تتكون وفقاً لهذه الصيغـــة طوال قرون وقرون» . حقاً ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، ان جدالك «لا غرابة» فيه ! كان قوام النظرية ما يلي لاجل «اثارة» التاريخ ، ينبغي البحث عن الاسس في العلاقات الاجتماعية المادية لا الفكرية ان قله الوقائع الملموسة لم تسمح بتطبيق هذه الطريقة على تحليل بعض الظواهر البالغة الاهمية في تاريخ اوروبا القديم ، كالتنظيم «الجنسي» العشائري (١١) ، مثلا ، الذي ظل لغزاً لهذا السبب عينه * واذا الوثائق الغنية التي جمعها مورغان في اميركا تتيح له تحليل طبيعة التنظيم «الجنسي» العشائري ؛ ويستنتج منها ان تفسير هذا التنظيم انما يجب البحث عنه في العلاقات الماديـــة لا في العلاقات الفكرية (الحقوقية او الدينية ، مثلا) . وبديهي ان هذا الواقع تأكيد ساطع لصحة الطريقة المادية ، لا اكثر وحين يعيب السيد ميخايلوفسكي على هذا المذهب ، اولا ، ان مفتاح اصعب الالغاز التاريخية انما وجده انسان «غريب تماماً» عن نظرية المادية الاقتصادية ، فلا يسعنا الا ان نعجب لعجز الناس عن التمييز بين ما يدعم كلامهم وما يناقضه بصورة قاسيـــة ثانياً ، يواصل فيلسوفنا قائلا ان التناسل ليس عاملا اقتصادياً

---

* هنا ايضاً لا يدع السيد ميخايلوفسكي فرصـــة للتلاعب بهذا الصدد كيف يمكن هذا ؟ مفهوم علمي عن التاريخ ــ والتاريخ القديم يظل لغزاً ! ايها السيد ميخايلوفسكي ، ان اي كتاب مدرسي بسيط يعلمك ان التنظيم «الجنسي» قضية من اصعب القضايا وان تفسيره ادى الى ظهور فيض من النظريات .

ولكن اين وجدت في مؤلفات ماركس او انجلس انهما تحدثا بالضرورة عن المادية الاقتصادية ؟ انهما اذ عرّفا مفهومهما عن العالم ، اسمياه بكل بساطة المادية وكانت فكرتهما الاساسية (الواردة بدقة مطلقة ، مثلا في المقطع المذكور آنفاً لماركس) ان العلاقات الاجتماعية تنقسم الى علاقات مادية وعلاقات فكرية وهذه الاخيرة ليست سوى بناء فوقي مقام على الاولى التي تتكون خارج ارادة الانسان ووعيه ، بوصفه (نتيجة) شكلا لنشاط الانسان من اجل تأمين معيشته يقول ماركس في هذا المقطع ان تفسير الاشكال السياسية الحقوقية انما يجب البحث عنه في «العلاقات المادية الحياتية» ترى ، هل يظن السيد ميخايلوفسكي ان العلاقات التناسلية هي من عداد العلاقات الفكرية ؟ ان الايضاحات التي يقدمها السيد ميخايلوفسكي بهذا الصدد لبليغة الدلالة بحيث يجدر التوقف عندها فهو يقول «مهما كانت جهودنا كبيرة لاقامة صلة ، ولو لغوية ، بين التناسل والمادية الاقتصادية ، ومهما كان التناسل متشابكا في هذه الشبكة المعقدة من ظواهر الحياة الاجتماعية ، فان له جذوره الخاصة ، الفيزيولوجية والنفسية (ايها السيد ميخايلوفسكي ، هل تروي ذلك للرضاع اذ تقول ان للتناسل جذوراً فيزيولوجية !؟ ترى ، من تريد ان توهم ؟) وهذا يذكرنا بان نظريي المادية الاقتصادية لم يدققوا حساباتهم لا مع التاريخ وحسب ، بل ايضاً مع البسيكولوجيا . ولا سبيل الى الشك في ان العلاقات العشائرية قد فقدت اهميتها في تاريخ البلدان المتمدنة ، ولكنه قد لا يمكن قول الشيء نفسه عن العلاقات الجنسية والعائلية الصرف فقد طرأت عليها ، بالطبع ، تغيرات كبيرة تحت ضغط الحياة المتزايدة تعقيداً بوجه عام ، ولكنه ، قد يمكن ، ببعض المهارة الديالكتيكية ، البرهان على ان ليست العلاقات الحقوقية وحدها ، بل ايضاً العلاقات الاقتصادية ذاتها ،

تؤلف «بناء فوقياً» مقاماً على العلاقات الجنسية والعائلية ولن ننصرف الى ذلك ، غير اننا نشير على الاقل الى مؤسسة الوراثة»

وهكذا استطاع فيلسوفنا ان يخرج اخيراً من نطاق الجمل الجوفاء * ويقترب من الوقائع الملموسة التي يمكن التثبت منها والتي لا تتيح «طمس» جوهر المسألة بهذه السهولة لنر اذن كيف يبرهن صاحبنا ناقد ماركس ان مؤسسة الوراثة بناء فوقي مقام على العلاقات الجنسية والعائلية يناظر السيد ميخايلوفسكي قائلا «ان منتجات الانتاج الاقتصادي («منتجات الانتاج الاقتصادي» !! اي ذكاء ! واي رنين موسيقي ! واية رشاقة في الاسلوب !) هي التي تنقل بالوراثة ، ومؤسسة الوراثة نفسها مشروطة الى حد ما بواقع المنافسة الاقتصادية ولكن القيم غير المادية ، اولا ، تنقل ايضاً بالوراثة ، وهذا ما ينعكس في العناية بتربية الاولاد بروح آبائهم» وهكذا ، فان تربية الاطفال جزء من مؤسسة الوراثة ! مثلا ، بموجب مادة من القانون المدني الروسي ، «على الآباء ان يبذلوا جهدهم لتكوين اخلاقهم (اي اخلاق اولادهم) بالتربية المنزلية ويساعدوا على تحقيق مقاصد الحكومة» فهل هذا حقاً ما يقصده فيلسوفنا بمؤسسة الوراثة ؟ ـ «ثانياً ، حتى اذا اقتصرنا على النطاق الاقتصادي على وجه الحصر ، وحتى اذا كانت مؤسسة الوراثة غير معقولة دون منتجات الانتاج المنقولة بالوراثة ، فان هذه المؤسسة غير معقولة ايضاً بالقدر

---

* وبالفعل ، هل يمكن ان ننعت بغير هذا النعت اسلوبا قوامه اتهام الماديين بانهم لم يدققوا حساباتهم مع التاريخ ، دون ان يحاول ان يدرس ايضاحا **واحداً وحيداً** من الايضاحات المادية العديدة التي اعطاها الماديون عن مختلف القضايا التاريخية ؟ او حين يقال ان بالامكان تقديم البرهان على امر ما ، ولكننا لن ننصرف الى ذلك ؟